

أضواء البيان

@ 187 @ فَقَدَ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ { ، أي : إن تطلبوا الحكم بهلاك الظالم منكم ، ومن النبي صلى الله عليه وسلم فقد جاءكم الفتح ، أي : الحكم بهلاك الظالم وهو هلاكهم يوم بدر ؛ كما قاله غير واحد . وقد ذكروا أنهم لما أرادوا الخروج إلى بدر ، جاء أبو جهل ، وتعلق بأستار الكعبة ، وقال : اللّٰهُمَّ إنا قتان بينك نسقي الحجيح ، ونفعل ونفعل ، وإن محمدًا قطع الرحم وفرّق الجماعة ، وعاب الدّين ، وشم الآلهة ، وسفّه أحلام الآباء ، اللهم أهلك الظالم منذًا ومنه ، فطلب الحكم على الظالم ، فجاءهم الحكم على الظالم فقتلوا ببدر ، وصاروا إلى الخلود في النار ، إلى غير ذلك من الآيات . .

وعلى قول من قال من أهل العلم : إن المراد بالفتح في الآية الحكم والقضاء بينهم يوم القيامة ، فلا إشكال في قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ } ، وعلى القول بأن المراد بالفتح في الآية الحكم بينهم في الدنيا بهلاك الكفار ، كما وقع يوم بدر . فالظاهر أن معنى قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ } ، أي : إذا عاينوا الموت وشاهدوا القتل ، بدليل قوله تعالى : { فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللّٰهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرُوا بِنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللّٰهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ } ، وقوله تعالى : { وَلَيَسَّاتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِنَّ } ، وقوله تعالى في فرعون : { حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنْزِلَهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْإِنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ } . ولا يخفى أن قول من قال من أهل العلم : إن الفتح في هذه الآية فتح مكّة أنه غير صواب ، بدليل قوله تعالى : { قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ } ومعلوم أن فتح مكّة لا يمنع انتفاع المؤمن في وقته بإيمانه ، كما لا يخفى . { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرُوا } . جاء معناه موضحًا في آيات أخر ؛ كقوله تعالى : { أَمْ يَقُولُونَ شَاعَرٌ نَّتَدْرَبُّهُ بِمِثْلِ رَيْبِ الْمُؤْمِنِينَ * قُلْ تَدْرَبُّوا فَاِِزْنِي مَعَكُمْ مِّنَ الْمُتَدْرَبِّينَ } ، ومعلوم أن التريُّص هو الانتظار . وقوله تعالى : { قُلْ

انتَظِرُوا ۚ إِنَّا مُنْتَظِرُونَ { ، إلى غير ذلك من الآيات .